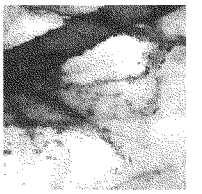

شجرةُ العائلة

كوليت أبو حسين

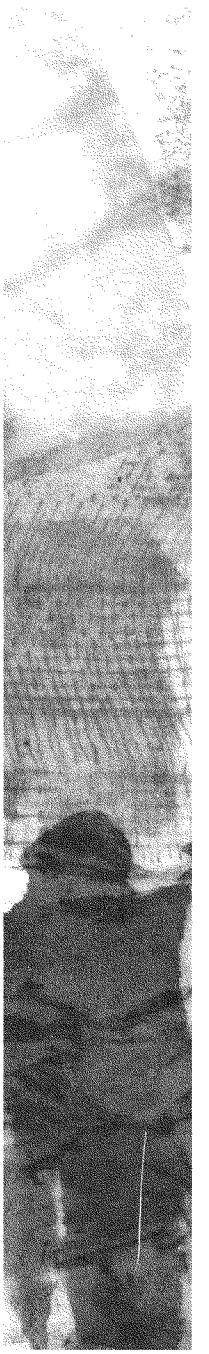

- ١ -

الإخوةُ ينقصونَ واحدًا كلَّ عام

الإخوةُ..

يَسقطونَ مثلَ ورقِ شجرةٍ استعجلتْ خريفَها.

- ٢ -

انتَظرتْ طوالَ الليل هاتفًا أَخويًا يبارك رمضانَ ويدعوها إلى الإفطار الأوّل، كما جَرت العادةُ كلَّ سنة.

لَم تكن مؤمنةً تمامًا، لكنّها كانت تُؤمن بِهم ـ إخوتِها الأربعة. وصوتُ أمّها العجوز لا يَخفتُ في رأسها، مُردّدةً أغنيةً قديمة: «أخوك أخوك وحافظ عالأخوية!»

وحين لم يتّصل، أَرسلتْ رسالةً قصيرةً إلى رقمه الذي لا تعرف مَن يحمله الآن:

«أخي.. فقط قل لي: ألا توجد تَغطية كافية هناك، حيث يُخبّئكم الله نكايةً بنا ومتعذّرًا بالموت؟»

- ٣ -

تَركض الطفلةُ مع الصغار مردّدةً وراءهم «بابا» كلّما تَجمّعوا حوله، حين يَدخل البيتَ عائدًا من عمله.

تَهزّها أمّها من كتفها كَيلا تَنسى يُتمها؛ هذا أَخوكِ.. إنّه أبوهم هُم!

وحين تَسأل عَن أبيها هي، تَردّ أمُّها بصوتٍ جمّدته الرُّملةُ وسلبَه الحزنُ موسيقاه: «عند الله!»

تَتساءل الصغيرةُ في سرّها: «لِمَ يأخذُ اللهُ والدَها ولا يَخلقُ من أجله واحدًا جديدًا إنْ كان يريد أبًا؟»

- ٤ -

كانوا أربعةً تضمّهم دائرةٌ واحدة. لَم يُفرّقْهم يُتمٌ ولا غربة. لم يختلفوا على إرثٍ ولا أرض. لَم تُفسدْهم امرأةٌ ولا حياة.

ظلّوا أربعة.

استَيقظَتْ مفزوعةً على ضجّةٍ مفاجئةٍ في البيت، الخامسة صباحًا.

«شو في؟»

سقطَ قلبُها. ارتدت جاكيتَها على عجل ورافقتْهم إلى المستشفى.

حين دخلوا الغرفةَ، كانت زوجةُ أخيها تعانقه جالسةً خلفه على السّرير. كان يُسند جسده المتهالكَ عليها وهي تضمّ يديها حوله. كان غائبًا عن الوعي. والمرأة التّي تَعْرف أنّها تتهيّأ كي تكون أرملةً تتمتم آياتٍ من القرآن وتشدّ على عينيها كي لا تَسقط دمعتُها على كتفه.

كان كبدُه قد توقّف، والكلى قرّرت الانتحار، وجسدُه الضّعيف يُعلن الإضرابَ عن الحياة.

الصغار كبروا وهي تُردّد وراءهم «بابا،» وهم يَشْهقون حول الجسد الميّت على السّرير.

- ٥ -

الصغيرة لم تكن حقًا صغيرة. لكنها سألتْ أخاها الآخر حين غادر المعزّون وظلّ الغيابُ حاضرًا:

- طيّب، إللي بيموت وين بيروح؟

كان فقدانُه أكبر مِن أَن يُجيب. لكنه رفع بصرَه، وهزّها من قلبها بنظرةِ انكسارٍ لم ترَها في عينيه من قبل، ثم قال كَمن يُخاطب طفلة: «عند الله!»

- ٦ -

الإخوةُ ينقصون واحدًا كلَّ عام.

الأوّل تَلحّفَ كبدَه ونام وحيدًا في مقبره.

الثاني يُشرِعُ قلبَه للمحيطِ ولصيّادي الجلطات.

الثالث يلعب الغمّيضة مع عزرائيل.

الرابع يَرقُبهم ويَعدّ على أصابعِ كفّه مَن تبقّى منهم للعام القادم.

وهي مازالت تتساءل: «إنْ كان اللهُ يريد عائلةً فلمَ لَم يَخلق من أجله واحدةً؟»

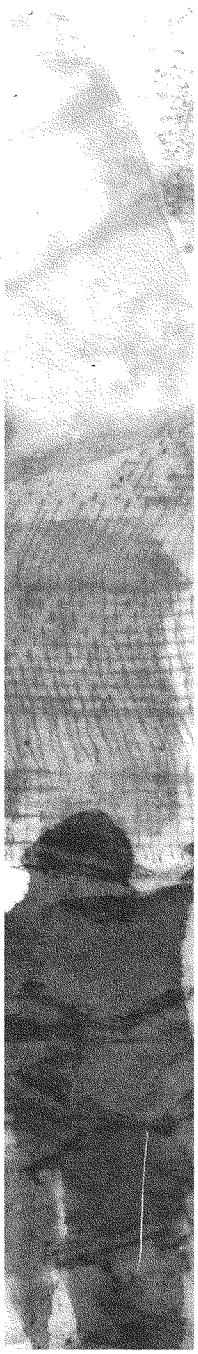

كوليت أبو حسين

تكتب القصّة القصيرة وشعر النثر..